الدين وتفاعله مع الحيـاة

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تقديم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان ، وبعد :

إن الاندفاع وراء المصالح والأهواء الخاصة ، والتأثر بتيارات المادية الهوجاء وما يصحبها من بُعْد عن الدين والقيم السامية ، والانجراف في سبيل تُرَّهات العصر وزيوفه ، والافتتان بألوان الترف ، وغزو الحضارة الغربية في جانبها العابث الماجن ، هو الذي أدى لحصر مفهوم الدين عند كثير من الناس في زوايا العبادة ، ودُور العلم والثقافة ، وساحات المساجد ، وفي أذهان فئة قليلة متخصصة بنقل الأمانة إلى الأجيال المتلاحقة .

وهذا يحدونا إلى ضرورة إلقاء الضوء الوهاج ـ منعاً من الزيغ والانحراف ـ على كلٍّ من مفهومي « الدين والشريعة » لنتبين إنصافاً للحقيقة واقع الإسلام منها ، أهو بمعنى الدين الشائع بالمفهوم الغربي المنغلق على بعض الشيوخ والعجائز في قيعان الكنائس ، وفي محض فكر رجال الدين ، أم هو بمعنى الدين المرادف للنظام والشريعة ، والذي له الهيمنة الشاملة والسلطان النافذ في أنحاء الضمير والوجدان ، أو القلب والوعي والعقل والسلوك ، بل هو المنهج لكل نواحي الحياة الخاصة

والعامة ، وعلى كل الأشخاص ، من غير تفرقة بين حاكم ومحكوم ، وغني وفقير ، وسيد ومسود ، ورجل وامرأة ، وعامل ورب عمل ، وعالم ومحترف .

* * *

فصل الدين عن الحياة في الغرب

لقد فصل الغربيون ـ بسبب الصراع على السلطة ونفوذ بعض الطبقات ـ بين الدين والحياة ، وقصروا الدين على التوجيه الروحي للإنسان ، وهناك سبب آخر : وهو معاداة رجال الكنيسة للتقدم العلمي والتقني في عصر النهضة الصناعية الكبرى ، وساعد ذلك تأثر الفكر المسيحي بالقيم الروحانية التي دعا إليها السيد المسيح عليه السلام ، محيلاً في نطاق التشريع على التوراة (العهد القديم) ، ومعلناً تخليه عن السلطة الزمنية لأهلها : « دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » فأصبح تقدير المصلحة العامة بأيدي الحكام ورجال الفكر والفلسفة والاجتماع والقانون .

* * *

ظاهرة الدين في بلاد الإسلام

لقد أريد للبلاد الإسلامية مع الأسف ، بتأثير الاستعمار وأجهزة إعلامه ، وعلى أيدي نخبة من المثقفين الذين تثقفوا في بلاد الغرب ، أن يشيع في أرجاء الإسلام ذلك المفهوم الغربي للدين ، وهو الصفاء النفسي فقط ، أو النزعة الروحية ، بممارسة عبادات وطقوس في أماكن العبادة فقط أو في المنازل فقط .

ثم يقع الشباب في المجتمع فريسة المخططات الصهيونية العالمية التي تدعو كما هو معروف في « بروتوكولات حكماء صهيون » إلى تدمير الأخلاق ، وزعزعة العقائد ، وبذر بذور الشك والقلق والحيرة ، وإضعاف سلطان الدين والرقيب الداخلي على النفوس ، فتتبدد طاقات الأمة ، وتسهل السيطرة عليها ، وتفقد هُويَّتها وأصالتها الذاتية . وهذا ما نعانيه اليوم في مواجهة شبان العصر ومثقفي الزمان ، حيث إنهم تعقدوا وضاعوا ، ولم يجدوا سبيلاً واضحاً للاعتماد على قيم أو مبادئ ، أو أفكار مسلَّمة تنقذهم ، أو يستلهم الواحد منهم منها غاياته وأهدافه وتطلعاته وأفكاره ، وهذا يؤدي بدوره إلى زرع « عقدة النقص » أو الشعور بالتخلف ، أو التمرد والثورة على الأوضاع أحياناً .

عرفتُ هذا بالتجربة والنقاش مع المتعلمين في أعلى مستويات التعليم ، فإذا انضم إلى ذلك جهل الشاب ونقص تكوينه ، وضعف ثقافته ومعرفته بالحياة وبالعالم المشاهد ، رأينا العجائب والغرائب في أفكار النشء ورجال الغد والمستقبل ! ! .

لم يكن الدين ـ أي : دين سماوي ثابت ـ يوماً ما قيداً مضروباً على الأعناق أو غُلاً تُصفَّد فيه الأيدي والأرجل ، لإعاقة الحركة والنمو والتطور وبناء المجد ، وإعلاء صرح عزة الإنسان وتشييد مقومات الكرامة الإنسانية ، وتحقيق الغايات الإنسانية المتزنة الحقة .

* * *

المعنى السامي للدين

إن ديناً معناه « الإيمان بذات إلهية ، جديرة بالطاعة والعبادة » يرمز بحق لأعلى مراتب السمو الإنساني ويبدّد من النفس الشعور بالخوف والقلق والاضطراب ، ويستأصل كل مظاهر الاستعباد والتسلط والهيمنة الظالمة ، ويبني الإنسان من أعماق الداخل ، ويوجد منه أداة طبية وعضواً صالحاً مجاهداً في الحياة ، من أجل إسعاد نفسه وأمته ، هذا هو الدين بمعنى التدين ، أي : من حيث هو حالة نفسية .

وكذلك الدين بمعنى النظام أو من حيث هو حقيقة خارجية : هو « جملة النواميس النظرية التي تحدد صفات الذات الإلهية ، وجملة القواعد العملية التي ترسم طريقة عبادتها » .

* * *

معنى الدين في القرآن

إنه تجسيد حي للغايات المثلى غير النفعية ، وقد عني القرآن الكريم بمظاهر وحقائق كلا المعنيين لكلمة الدين ، فجاء إيراد « الدين » بمعنى الجزاء ، وبمعنى الشريعة والنظام ، وبمعنى العبادة ، وبمعنى الرابطة الجامعة لجماعة المؤمنين به .

أما كون الدين بمعنى الجزاء : ففيه آيات كريمة كثيرة ، منها قوله تعالى : ﴿ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الفاتحة : ٤] ، ومنها : ﴿ وَإِنَّ ٱلدِّينَ لَوَٰقِعٌ ﴾ [الذاريات : ٦] ﴿ يَسْـَٔلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الذاريات : ١٢] ﴿ وَقَالُواْ يَٰوَيْلَنَا هَٰذَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ﴾ [الصافات : ٢٠] ﴿ هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الواقعة : ٥٦] ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ [الشعراء : ٨٢] ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكَ ـ أي على الشيطان ـ ٱللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [الحجر : ٣٥] ﴿ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴾ [المدثر : ٤٦] .

والدين بمعنى العبادة : مثل قوله تعالى : ﴿ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [البينة : ٥] ﴿ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾ [الزمر : ٢] ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ﴾ [الروم : ٣٠] أي أخلص دينك لله ، وأقبل على الإسلام بهمة ونشاط .

والدين بمعنى الشريعة والنظام والملة المستقيمة : هو السمة الغالبة في القرآن العظيم ، مثل قوله تعالى حكاية لما قال إبراهيم ويعقوب لأبنائهما : ﴿ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ ﴾ [البقرة : ١٣٢] أي : اختار لكم دين الإسلام (أي الخضوع والانقياد لأمر الله) ديناً ، ومثل قوله عز وجل : ﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾

[آل عمران : ١٩] وتؤكدها آية أخرى أصرح منها : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران : ٨٥] أي : من يطلب شريعة غير شريعة الإسلام بعد بعثة النَّبي عليه الصلاة والسلام ليدين بها ، فلن يتقبل الله منه .

ويصف القرآن هذا الدين بقوله تعالى : ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة : ٥] ويحدد هدف جهاد الأعداء : ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال : ٣٩] ويعلن الله تعالى إكمال بناء الدين ورضاه بالإسلام ديناً : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة : ٣] ويتم في أواخر القرآن إعلان الانفصال التام بين الإسلام وغيره : ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون : ٦] .

ويأتي الدين أخيراً بمعنى الرابطة الجامعة لجماعة المؤمنين به ، كما في قوله تعالى : ﴿وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ [الأنفال : ٧٢] أي إن طلبوا منكم النصرة لأجل إعزاز الدين ، والحفاظ على أتباعه والمؤمنين به ، فعليكم أن تنصروهم على أعدائهم ، لأنهم إخوانكم في الدين والإسلام .

* * *

مفهوم الشريعة والتشريع

وأما الشريعة في اصطلاح الفقهاء المسلمين : فهي الأحكام التي سنها الله لعباده ، ليكونوا مؤمنين ، عاملين على ما يسعدهم في الدنيا والآخرة ، وسميت هذه الأحكام شريعة ؛ لأنها مستقيمة محكمة الوضع ، لا ينحرف نظامها ، ولا تلتوي عن مقصدها كالجادة المستقيمة ، لا التواء فيها ، ولا اعوجاج ، وذلك يشبه الوصف السابق للدين : ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [البينة : ٥] أي : الملة المستقيمة .

وأما التشريع بمعنى إنشاء الشريعة ، فيطلق على سنّ القواعد ، وبيان النظم ، وإظهار الأحكام وإنشاء القوانين . وفي التنزيل الحكيم : ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا﴾ [الشورى : ١٣] أي : وضع قواعد الدين ، وفيه أيضاً : ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ﴾ [الشورى : ٢١] ، ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا﴾ [الجاثية : ١٨] ، وفي مجال المقارنة والتمييز بين الشرائع الإلهية ، قال الله تعالى : ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة : ٤٨] لكن أصول تلك الشرائع واحدة وغايتها واحدة ، قال الله تعالى : ﴿أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ [الشورى : ١٣] أي وصيناهم بأن أقيموا الدين الحق ـ دين الإسلام ـ الذي هو توحيد الله وطاعته ، والإيمان بكتبه ورسله ، وبالبعث والجزاء ، قال القرطبي : المراد اجعلوا الدين قائماً مستمراً محفوظاً من غير خلاف فيه ولا اضطراب ، في الأصول التي لا تختلف فيها الشريعة وهي :

التوحيد ، والصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج وغيرها ، فهذا كله مشروع ديناً واحداً ، وملة واحدة .

* * *

وحدة الأديان في أصولها

وهذا دليل قاطع على أن الأديان في أصولها الصحيحة الأولى واحدة المبادئ ، مشتركة الأصول ، منتظمة الغايات والأهداف ، ذات رسالة إصلاحية حضارية واحدة ، تتركز في إثبات أو تقرير وحدانية الألوهية والربوبية ، وإطاعة الذات الإلهية ، وإصلاح الأخلاق ، والدعوة إلى الفضائل ، وما على البشرية إلا أن ينضموا تحت لواء هذه الدعوة الواحدة ، ويعيشوا في أمان وسلام وسعادة وحب وإخاء .

* * *

غاية الدين أو الشريعة

وبه يتحقق مضمون الشريعة أو الدين بمعناه الغالب في القرآن ، وتكون مهمة الإسلام الجوهرية إكمال البنية التشريعية ، وضم الناس وجمعهم تحت لواء واحد ، وربط الدين بالحياة دون عزلة أو انفصام ، لأن دين الله وشرعه عقيدة ونظام ومنهج حياة ، ينظم العلاقات الاجتماعية ويؤصل روابط التعامل ، ولا معنى للدين أصلاً إذا تخلى عن تنظيم الحياة الواقعية ، بتصوراته الخاصة ، ومفاهيمه الذاتية ، وشرائعه المحكمة ، وتوجيهاته السديدة ، ويصبح قصر مفهوم الدين على العبادة الخاصة لوناً من المسخ أو مبادرة إلى النسخ والإبطال والإلغاء بعد حقبة قصيرة من الزمان .

* * *

الغرض من تفاعل الدين مع الحياة

إن تفاعل الدين مع الحياة سبب لإنقاذ الحياة الإنسانية من التردي والفوضى والهمجية ، فلا حياة بالمعنى الكريم من دون نظام ، ولا نظام ما لم ينبع احترامه من النفس والاعتقاد والوجدان والضمير ، وهذا ما ألح عليه القرآن الكريم ، مبيناً غاية الدين الأصيلة ، فقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴾ [الأنفال : ٢٤] أي : أجيبوا دعاء رسوله إذا دعاكم للإيمان الذي به تحيا النفوس ، وبه تحققون الحياة الأبدية ، قال قتادة : هو القرآن فيه الحياة والثقة والنجاة ، والعصمة في الدنيا والآخرة .

* * *

مقومات الاستقامة في الحياة

ولأذكر مثلاً على مقومات الحياة المستقيمة التي يضعها القرآن الكريم منهاجاً للبشرية ، ودستوراً للجماعة الإسلامية في قيامها وتكوينها ، قال الله تعالى : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

[الأنعام: ١٥١ـ١٥٣].

عبّرت هذه الآيات عن الأسس التي تقوم عليها شريعة الإله ، الموصوفة بحق بكونها الصراط المستقيم ، وهي إصلاح العقيدة ، وتقويم السلوك الأخلاقي ، وتنظيم المعاملات . فليست أسس الدين مقصورة على المعنى الغربي للدين : وهو المتعلق بالعقيدة الإلهية ، ولا على الوصايا الأخلاقية التي قد يقرر بعضها الحكماء والفلاسفة ، وإنما تتجاوز هذين الأمرين إلى دائرة التعامل والتبادل في خضم الحياة الصاخبة التي يستميت الناس عادة في تحقيق أكبر ربح أو نفع منها ، لكن سرعان

ما تتقوض أركان هذه الحياة إذا لم تعصم بالنظام ، وهو المعبَّر عنه بالصراط المستقيم الذي يدعو به المؤمن في صلواته آناء الليل وأطراف النهار : ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة : ٦] .

وبنود الصراط المستقيم المذكورة في الآيات السابقة هي لخير الإنسان ، خصوصاً فيما يباشره يومياً من شؤون الحياة ، فمن عرف حدَّه ، وأدى واجبه ، اطمأن إلى نتيجة التعامل ، ولم تهدده الأطماع وصنوف الشراسة والأذى من الناس .

لذا أكدت الأوامر القرآنية على ضرورة التزام جادة الاستقامة ؛ لأنها في الحقيقة خير وأبقى وأمثل وأتم ، وكانت مهمة النَّبي ﷺ ترغيباً وترهيباً من أجل التركيز على مخاطر الانحراف عن الصراط المستقيم ، والتحذير من مغبة الوقوع في المخالفات أو التحايل على نظام التعامل ، روى ابن مسعود رضي الله عنه ـ فيما ذكره رَزين ، وأحمد والبزار بإسناد حسن ـ أن رسول الله ﷺ قال :

« ضرب الله مثلاً صراطاً مستقيماً ، وعن جنبتي الصراط سوران ، فيهما أبواب مُفتَّحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعند رأس الصراط داع يقول :

استقيموا على الصراط ، ولا تَعْوَجّوا ، وفوق ذلك داع يدعو ، كلما همَّ عبد أن يفتح شيئاً من تلك الأبواب ، قال : وَيْحك ، لَا تَفْتَحْهُ فإنك إن تفْتَحه تَلِجْه ، ثم فسَّره فأخبر : أن الصراط المستقيم هو الإسلام ، وأن الأبواب المُفتَّحة محارم الله ، وأن الستور المرخاة حدود الله ، والداعي على رأس الصراط هو القرآن ، والداعي من فوقه : هو واعظُ الله في قلب كل مؤمن .

والخلاصة : إننا نرفض بشدة قصر الدين على جانب العقيدة ، أو

جانب العبادة ، أو جانب الأخلاق الشخصية الطوعية ، وإنما الدين نظام للحياة برمتها ، ولا تنفصل جوانب الدين عن بعضها ، وكلها تتقوى وتتآزر بأجزائها لصوغ حياة رفيعة المستوى ، مزدانةً بأبهى الخصائص ، متميزةً بكل مظاهر التقدم والاستقامة ، والأسوة الحسنة لشعوب الأرض ، قائمةً على عقيدة التوحيد ، والعبودية لله تعالى ، والخُلق الكريم ، والمعاملة السوية ، ليتفرغ المجتمع إلى مهامه الكبرى في بناء الشخصية وإثبات الذات .

* * *

أسئلة وأجوبة

حضرة الأستاذ الدكتور وهبة الزحيلي المحترم .

نود أن نطرح عليكم بعض الإشكالات والتساؤلات التي تطرح هنا وهناك في الساحة الإسلامية ، ونأمل أن تتفضلوا بالإجابة عنها بما يمكّن شباب العالم الإسلامي من الاستفادة من تجربتكم الغنية والطويلة في الدعوة والإرشاد ، والتعليم والتأليف ، والكتابة في مختلف فروع المعارف الإسلامية ، ولكم منا جزيل الشكر ، ونرجو من الله أن يجزيكم خير الجزاء .

السؤال الأول (ظاهرة التكفير) : ظهرت مؤخراً في الساحة الإسلامية مشكلة تكفير بعض المسلمين لبعض آخر منهم ، وقد أدى هذا إلى جدل عريض ، واتهامات متبادلة ، وقد لوحظ في غمرة هذا الجدل غياب البحث في ضوابط التكفير من الوجهة الشرعية ، فما هي ضوابط التكفير وأسبابه ، ومن الذي يملك الحق الشرعي في إطلاق صفة الكفر أو الردة على الناس ؟

الجواب : لا يصح بحال من الأحوال اتهام مسلم يشهد بالشهادتين بالكفر ، مادام لا يستحل حراماً ، ولا يحرم حلالاً ، ولا ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة (أي بالبداهة) مثل فريضة الصلاة والزكاة والصوم والحج وتحريم الخمر والزنىٰ والربا والسرقة وغيرها من أكل أموال الناس بالباطل . ولا يحكم على مسلم بالردة أو بالكفر إلا بالرجوع

عن دين الإسلام إلى دائرة الكفر ، سواء كانت الدائرة في نطاق الكتابيين ، أو في نطاق الملل الأخرى غير السماوية ، مثل إنكار وجود الله تعالى ، أو نفي الإيمان بالرسالة أو النبوة والرسل ، أو تكذيب رسول ، أو استباحة حرام بالإجماع كالزنىٰ واللواط وشرب الخمر وبقية المسكرات ، والظلم ، أو تحريم حلال بالإجماع كالبيع والزواج ، أو نفي وجوب مجمع عليه ، كنفي ركعة من ركعات الصلوات الخمس المفروضة ، أو اعتقاد ما ليس بواجب بالإجماع كزيادة ركعة على الصلاة المفروضة ، أو وجوب صوم شيء من شهر غير رمضان ، أو عزم على الكفر غداً أو بعده ، أو تردد فيه .

ولا يصح تكفير الدولة لأنها شخص معنوي ، ولا يحكم على حاكم بالكفر إلا بإعلان الكفر صراحة ، كما أخبر النَّبي ﷺ كما أخرجه البخاري ومسلم والموطأ والنسائي : « إلا إن تروا كفراً بَوَاحاً عندكم من الله فيه حجة وبرهان » ، أي : كفراً صريحاً ظاهراً مكشوفاً ، أو محققاً تعلمونه من قواعد الإسلام .

ولا يحق لأحد إعلان تكفير مسلم إلا برؤيته الكفر الصراح منه ، أو بإعلان قاض عدل ثقة أمين في دينه وعلمه .

لذا لا يقبل من أحد قوله : إن فلاناً كافر أو زنديق أو مرتد ، حتى يقوم الدليل الواضح على كفره . أما مجرد مخالفته غيره في الرأي الذي لا يصادم إجماع الأمة الصريح ، فلا يعد كفراً .

وإذا لم يكن الكفر صراحة يترك الأمر لله عز وجل عالم الغيب والشهادة ، والمطلع على ما في القلوب .

ومن المعلوم أن المرتد تجب استتابته ومحاكمته أمام حاكم أو قاض ، ولا يصح اتهام أحد بالكفر إلا بعد محاكمة على قوله ، أو عبارات كُتبه أو

مؤلفاته ، منعاً من خسارة مسلم أو التورط في أمر متروك لإدراك حقيقته لله عز وجل .

السؤال الثاني (عن الديموقراطية) : الديمقراطية (حكم الشعب نفسه بنفسه ولنفسه) إحدى المقولات الأكثر شهرة في العالم اليوم ، وقد اختلفت آراء العلماء والمفكرين المسلمين حول موضوع الديمقراطية ، فما هو موقفكم من الديمقراطية ، وهل من بديل لها ؟

الجواب : الديمقراطية التي تعني حكم الشعب بالشعب هو اصطلاح إغريقي قديم ، ويلتقي نظام الإسلام السياسي مع مبدأ الديمقراطية ، في قيام الإسلام على مبدأ الشورى والعدل والمساواة بين الناس في الحقوق والواجبات ، وهذه مبادىء الديمقراطية الإسلامية ، ويخالف الإسلام الديمقراطية في أن التشريع أو التقنين لا سلطان عليه لأحد إلا اتفاق ممثلي الشعب في المجالس النيابية ، فإذا أصدر البرلمان قانوناً مخالفاً لنظام الشريعة ، ظهر التعارض بين الإسلام والديمقراطية ، لكن أغلب ما يصدر عن البرلمانات الحالية قوانين تنظيمية أو إدارية كخطط التنمية الاجتماعية والاقتصادية والتربوية ، فمثلاً قانون التأمينات الاجتماعية للعمال والموظفين لا يتصادم مع الإسلام ، وكذا قانون التقاعد وقانون الخدمة العسكرية ، وقانون تطوير الصناعة أو التجارة ، أو الزراعة ، ونحو ذلك مما لا يضر الأمة ، ولا يصادم الشريعة الإسلامية ، فهذه القوانين جائزة ، وتظل هناك فروق ثلاثة بين الإسلام والديمقراطية وهي التي تجعلنا لا نقرها ، وهي :

١ ـ إن الديمقراطية تقترن بفكرة القومية الضيقة أو العنصرية ، وتعتمد على نزعة التعصب أو العصبية ، أما الإسلام فلا يقر بالانغلاق القومي ، والأمة بمفهومه تعتمد على رابطة العقيدة الإسلامية التي لا يحدها إقليم

معين ، أما إذا كانت النزعة الضيقة في الدولة الإقليمية منفتحة متسامحة ، وهي مجرد خطة استراتيجية لتجميع القوى بدءاً بالأخ والجار مثلاً ، فلا مانع منها .

٢ـ إن هدف الديمقراطية علماني مادي دنيوي بحت ، يقصد منها إسعاد أمة أو شعب بعينه من الناحية الاقتصادية فقط ، أما الإسلام فله هدف مزدوج روحي أخروي ودنيوي مادي ، فيلتقي عنصرا المادة والروح ومنها القيم الإنسانية والأخلاقية لإيجاد المواطن الصالح في الدنيا والآخرة .

٣ـ إن سلطة الأمة في الأنظمة الديمقراطية مطلقة ، فهي صاحبة السيادة وما يتفق عليه ممثلوها يصبح قانوناً واجب النفاذ ، حتى ولو صادم الدين أو الأخلاق ، أو عارض المصالح الإنسانية العامة ، أما سلطة الأمة في الإسلام ، فمقصورة على تقرير الأنظمة التطبيقية في ظل النظام الإسلامي دون مخالفة لأي نظام منه ، وهذا أخطر الفروق ، وهو الذي يجعلنا نقول : إن الديمقراطية بالمفهوم الغربي الحديث أو القديم لا تلتقي مع الإسلام .

السؤال الثالث (عن تجديد الفكر الديني) : يرى بعض المفكرين ضرورة تجديد الفكر الإسلامي ، هل توافقون على هذه الفكرة ، وما هو إطار التجديد الذي ترونه ؟

الجواب : إن بنية الفكر الإسلامي تقوم بصفة دائمة على الإصلاح الجذري والتقدم الشامل في كل شؤون الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، وهذه أصول ذات صفة ثابتة أو دائمة لا تحتاج لتجديد أو تقويم أو تصحيح .

فإن كان الهدف من تجديد الفكر الإسلامي هو التحرر أو الانعتاق من الأصول الدينية والأخلاقية والإنسانية ، فهذا أمر مرفوض ، وإن كان الهدف من تجديد الفكر التحرك في إطار شرع الله ودينه لإصلاح اعوجاج

الأمة أو المجتمع أو الدولة ، أو من أجل تطبيق النظام الأصوب ، فهذا لا مانع منه شريطة أن يظل التجديد في إطار الأهداف التشريعية الكبرى أو مقاصد الشريعة العامة ، فهذا التجديد من أجل التخلص من أمراض التخلف والتمزق والضياع والتشتت ، ومن أجل إثبات الذات ، والاعتماد على النفس ، والثقة بمقدراتنا ، هوظاهرة صحية مقبولة ، أما التجديد الذي يراد به الهدم والتخريب والخروج من مقاييس الدين أو الشريعة فهو منبوذ ، لأنه وإن سمي تجديداً ، فهو تخريب ، كتجديد تركيا على يد أتاتورك بهدم الأصول الإسلامية ، وفرض العلمانية أو اللادينية ، ومعاداة كل ما هو إسلامي ، فهذا الانسلاخ كفر وردة وخلل في الفكر ، فهو وإن سمي تجديداً فهو تخريب قطعاً .

السؤال الرابع (عن الوحدة الإسلامية) : من المسائل المهمة المطروحة أمام الحركة الإسلامية : مسألة الوحدة الإسلامية ، والتقريب بين المذاهب ، هل ترون إمكانية فعلية لقيام هذه الوحدة ، وما هي التحديات التي تحول دونها ؟

الجواب : الحركة الإسلامية تتطلب ثلاثة أمور :

١ـ الالتزام الواعي بمعطيات الإسلام .

٢ـ العلم الدقيق بمفاهيم الإسلام الصحيحة ومتطلبات العصر الحديث .

٣ـ وحدة الصف الإسلامي .

فإذا قامت الحركة الإسلامية على مجرد العاطفة الإسلامية أو المحبة وحدها دون العلم بأحكام الشريعة كلها ، أو كان هناك جهل بالإسلام وبظروف العصر ، أو بقي دعاة الحركة الإسلامية ممزقين لاختلافات فرعية أو جانبية ، فإنه لن تنجح هذه الحركة .

وقد أثبتت أحداث الخمسين سنة الأخيرة فشل هذه الحركة لتخليها

عن هذه الأصول الثلاثة ، ولا يمكن للحركة الإسلامية أن تقاوم التحديات أو التيارات القوية ضدها إلا بتخطيط دقيق ، وترشيد سديد ، ووعي صحيح ، ودراسة متأنية لكل تحرك أو اتخاذ موقف إزاء مشكلة معينة .

والتحديات كثيرة خارجية وداخلية ، لأن عداوة الإسلام ومحاولة إبعاد تطبيق شريعته بين الناس لها أصداء على كل شيء من الخارج والداخل .

والتغلب على هذه التحديات يتطلب صبراً وسعة أفق ، وتعاوناً مع كل الجبهات التي تعمل لخير الإسلام والمسلمين .

وإذا لم يتحقق التعاون بين المخلصين للإسلام ، فيصعب التوصل إلى تحقيق النجاح المطلوب .

إنه مع الأسف الشديد أصبح العمل الوحدوي الإسلامي صعب المنال ، وصعب التطبيق بسبب انكماش أو انغلاق الجماعات الإسلامية في كل بلد على نفسها ، دون تنسيق مع غيرها .

ولا مانع مما يسمى بالتقريب بين المذاهب في مجال الاجتهاد إذا حسنت النية ، وكان الحكم بحسب الدليل الراجح .

وأما التحديات فتكاد تنحصر في معاداة الغرب للإسلام ، وفي أفكار بعض المثقفين الذين يجهلون حقيقة الإسلام .

السؤال الخامس (قضية الحوار بين الأديان) : ما هو موقفكم من الدعوة إلى الحوار بين الأديان ، وهل ترون أن لهذا الحوار حدوداً يجب أن يقف عندها ؟

الجواب : لقد اشتركت في ألوان متعددة من الحوار السني الشيعي ، والإسلامي المسيحي ، سواء مع المنتمين للكنيسة الغربية أو الكاثوليكية في روما ، أو المنتمين للكنيسة الشرقية في مصر وأنطاكية وسائر بلاد

المشرق الأرثوذكسي ، وكان الحوار مقصوراً على بعض الجوانب أو المواقف السياسية والدينية من الإلحاد ، والعلمانية الرافضة للدين ، أو الصهيونية الجائرة في فلسطين ، وقد اتفقنا مع المتحاورين على وحدة القضية المصلحية العربية أو الدينية ضد الإلحاد ، وضد تهويد المناطق العربية في فلسطين .

أما إذا كان الهدف من الحوار الديني استغلال الجانب الإسلامي للاعتراف بصحة ما عليه غير المسلمين من عقائد وأوضاع ، فهذا عمل خائب أو فاشل ، وينبغي الحذر منه .

وإنني مع الحوار في الجانب المناوئ للإلحاد أو المهدد لمصالح أمتنا وحقوقها في فلسطين وغيرها من البلاد المعتدى عليها .

ولست مع الحوار الذي يعني صهر الأديان وتوحيدها في مفهوم عقدي واحد ينافي أصول الدين الإلهي الحق القائم على التوحيد الإلهي والعدل والمودة والمساواة ، وإحقاق الحق وإبطال الباطل .

السؤال السادس (عن كلمة التوجيه والنصح) : هل من كلمة تتوجهون بها من خلال جريدتنا[١] إلى شباب ودعاة المسلمين في العالم ؟

الجواب : كلمتي الخالصة لكل العاملين في الحقل الدعوي الإسلامي أن يتجنبوا الخلافات الجزئية مثل خلاف السلفية ، أو خلاف أهل الحديث ، أو خلاف الأشاعرة والمعتزلة ، أو المذهبية واللامذهبية ، وأن يتجهوا للعمل صفاً واحداً في حقل الدعوة الإسلامية الكبرى في أصول الاعتقاد الأساسية ، وتبيان محاسن الإسلام ونزعته الإنسانية المترفعة عن أوضار المصالح المادية ، والعمل على إفهام الآخرين نزعة

(١) هي جريدة الوسط الأردنية ـ العدد ٣ ربيع الأول ١٤١٨ هـ حوار مع فقيه .

الإسلام السلمية الخيرة نحو شعوب الأرض قاطبة ، وتبيان الغايات الطيبة للإخاء الإسلامي والفرائض الإسلامية ، وتجنب المحظورات الإسلامية ، فالواجب إذاً العناية بالأصول ، وبإدخال الناس في الإسلام ، وإقناعهم به ، وترك الخلاف في الفروع .

إن مما يحز في النفس أن يستعمل سلاح السنة والبدعة لتنفير الداخلين في الإسلام عنه ، وبخاصة في بلاد الغرب وحتى في البلاد الإسلامية ، أما في الغرب فالخسارة محققة حيث يخسر الجانبان ، ويغلق المركز الإسلامي مثلاً كما حصل فعلاً في بعض البلاد الغربية ، وأما في البلاد العربية فالخسارة أيضاً محققة حيث يقوم الشجار والنزاع ويتفرق المصلون من المسجد الواحد ، وقلوبهم متنافرة متحاسدة متباغضة ، لا يصلي أحدهم خلف الآخر ، ولهذا فعلى الدعاة أن يعلنوا إخاءهم على أنهم صف واحد ، وعليهم التزام القرآن وسيرة النَّبي ﷺ في الدعوة ، وإن الداعية المخلص غير المشبوه هو الذي يجمع الناس على فهم كتاب الله وسنة نبيه ، ويحرص على رابطة الأخوة الإسلامية ، وحسن الظن بالمسلمين ، والإحساس الدافئ والقوي بتقوى الله ، والإخلاص له ، ورقابته في السر والعلن دون تورط في التكفير وإساءة الظن بالآخرين . وعليه أن يترفع عن استغلال خلافات الفروع بمعنى لا يتفرق المسلمون أحزاباً ؛ وليعذر كل فريق الآخر في هذه الخلافات النابعة من قضايا الاجتهاد ، وصحة النص الشرعي وعدمه .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

* * *